

الدرس السادس

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾
وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ
﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ
﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الحجر: ٧٨-٨٤) .

إرسال شعيب إلى أصحاب الأيكة :

ذكرت السورة قصة أخرى بإيجاز ، قصة أصحاب الأيكة : ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ
الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ ، إشارة سريعة إلى قصة
أخرى ، قصة أصحاب الأيكة ، والأيكة : هي الموضع الذي يكثر فيه الشجر
المُلتف . وهؤلاء هم الذين أرسل إليهم شعيب عليه السلام ، شعيبُ أرسل إلى
مدّين ، وهي مدينة على ساحل البحر تحاذي تبوك ، وأرسل إلى أصحاب الأيكة ،
ولكنه كان من مدّين ، ولذلك جاء في القرآن : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾
(الأعراف: ٨٥) ، ولكنه لم يكن من أصحاب الأيكة ، ولذلك لم يقل : (إذ قال لهم
أخوهم شعيب) . في سورة الشعراء ، بل قال : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾
(الشعراء: ١٧٧) ، ولم يقل لهم : (يا قوم أوفوا الكيل) . بل قال : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ ﴾
(الشعراء: ١٨١) من غير يا قوم . فدلنا القرآن بذلك على أن من الأخوة أخوة قومية ،
كأخوة شعيب لمدّين . ومن هنا أجزنا أن يكون بين المسلمين والمسحيين إذا كانوا
من بلد واحد كمصر ، أو من ثقافة واحدة وحضارة واحدة ، كالمسحيين العرب :
أخوة مشتركة هي الأخوة الوطنية أو القومية .

الانتقام من أصحاب الأيكة :

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظالمين ﴾^(١) ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

ووصف الله سبحانه أصحاب الأيكة بالظلم ، وهم ظلموا أكثر من ظلم .

الظلم الأول : ظلم الشرك ، ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان: ١٣) .

الظلم الثاني : ظلم الناس ، كانوا يُظفّفون في المكيال والميزان ، وكانوا يبخسون الناس أشياءهم ، ويعثون في الأرض مفسدين ، وهدّدوا نبهم بالرجم ، وقالوا : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ ﴾ (هود: ٩١) ، وهكذا توالى ظلمهم وتنوع .

كان أصحاب الأيكة ظالمين ، فانتقم الله منهم ، لأن الظلم عاقبته وخيمة : ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾^(٢) ، عاقبناهم على ظلمهم بأن أهلكتناهم بشدة الحر^(٣) ، ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ ﴾^(٤) طريق ، وإنما سمّي الطريق إماماً ؛ لأن الإنسان يأتّم به حتى يبلغ الموضوع الذي يريده ﴿ مُبِينٍ ﴾ : واضح ظاهر .

ما المراد بقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ ؟

هل هما أصحاب الأيكة ومدّين ، الذين أرسل إليهما شعيب؟ أم هم أصحاب الأيكة وقوم لوط ؛ لأنهم قريبون بعضهم من بعض في المكان وفي الزمان؟ ولذلك

(١) (إن) هي المخففة من الثقيلة ، وهي هنا مهملة عن العمل ، فصار معناها مشابهة لمعنى (قد) . واللام الداخلة على (ظالمين) هي اللام الفارقة بين المخففة من الثقيلة وبين (إن) النافية ، وتفيد التوكيد .

(٢) الانتقام ليس هنا للتشفي من الجاني ، بل معناه : إنزال العقوبة مناسبة لما ارتكبه .

(٣) انتقم الله من أصحاب الأيكة بعذاب الظلة المبيّنة في الآية ١٨٩ من سورة الشعراء . وأما أهل مدين فأخذتهم الصيحة كما جاء في سورة هود .

(٤) إمام على وزن فعال ، بمعنى اسم المفعول للمبالغة من مصدر : أُمَّ يُؤُمُّ ، وعُبر به عن اسم الذات لتوكيد المبالغة .

قال شعيب حينما أُنذر قومه : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ (هود: ٨٩). لعل القول الثاني هو الأقرب .

أصحاب الحجر قوم صالح :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾

قصةُ ثالثةٌ يذكرها الله تعالى بعد أن نبأ عباده أنه هو الغفور الرحيم ، وأنَّ عذابه هو العذاب الأليم ، وهي قصةُ أصحاب الحجر ، حجرِ ثمود قوم سيدنا صالح عليه السلام ، وهؤلاء من العرب ، الذين يُسمُّونهم العرب البائدة ، الذين بادوا ودرست آثارهم ، ولم يبقَ منهم شيءٌ : ﴿ وَثُمُودًا فَمَا أَبْقَى ﴾ (النجم: ٥١)، لم يبقَ منهم أحدٌ ، عاد وثمود من العرب البائدة .

تكذيب أصحاب الحجر المرسلين :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، هم كذبوا صالحاً وجحدوا ما جاء به وأنكروه ، وإنما قال تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، لأنَّ من كذب نبياً فكأنما كذب الأنبياء جميعاً ؛ لأنَّ مَنْ يفتري على هذا يفتري على ذلك ، ولذلك قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء: ١٠٥) ، فهم كذبوا نوحاً وكذبوا بتكذيبه كلُّ رُسُلِ الله عزَّ وجل : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

مكان حجرِ ثمود :

حجرِ ثمود هذا في الطريق من خيبر إلى تبوك ، ويعرف باسم (وادي القرى) ، وفيها بقايا آثار (ثمود) ويُطلق عليها الآن : (مدائن صالح) ، مرَّ عليها النبي ﷺ في مسيره إلى غزوة تبوك ، وحينما وصل إلى ديار القوم ، غطَّى وجهه وأسرع بدابته . ففي الصحيح ، عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه رضي الله عنهم ، أن النبي ﷺ لما

مرّ بالحجر قال : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، إلا أن تكونوا باكين ، أن يصيبكم ما أصابهم » ثم تقنع بردائه وهو على الرَّحْلِ (١) .

هلاك أصحاب الحضارات القديمة :

كان قوم صالح هؤلاء ، ونُسَمِّيهِم الآن أصحاب حضارة ، وقد ذكر الله في سورة الفجر أصحاب حضارات قديمة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٢﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٣﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٤﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿٥﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿٦﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿٧﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿٩﴾ (الفجر: ٦-١٤) ،

كلهم أصحاب حضارات مدنيّة ، عاد قوم هود : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ (الشعراء: ١٢٨، ١٢٩) .

وهؤلاء ثمود ، قوم صالح : ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ (الحجر: ٨٢) ، أو ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ (الشعراء: ١٤٩) ، يشقون الصخر وينحتونه ، ويجعلون منه مساكن لهم ، ويبيتوا لهم آمنين ، مقدرين أن الأمن سيستمر لهم إلى الأبد .

فبعث الله إليهم صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده : ﴿ قَالُوا يَنْصَلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهِنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ (هود: ٦٢) ، وظلّ سيّدنا صالح يدعوهم إلى طاعة الله ، وإلى عدم طاعة المفسدين في الأرض من الجبابرة والمُسْرِفِينَ ، قال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٨﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٢٩﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٣١﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ

(١) متفق عليه : رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٨٠) ، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٠) ، كما رواه أحمد (٥٧٠٥) ، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٢٧٠) .

بِغَايَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ (الشعراء: ١٥٠-١٥٤) ، فاتاه الله آيةً عظيمة هي الناقة ، أخرج له من الصخرة ناقةً بدعاء سيدنا صالح : ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ هَا شَرِبْ وَلَكُمْ شَرِبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ (الشعراء: ١٥٥) ، يعني تشربون يوماً ، وتشرب الناقة في اليوم التالي ، وهكذا ، واليوم المخصَّص لشرب الناقة تشربون من لبنها .

إعراض قوم صالح عن الآيات :

﴿ وَءَاتَيْنَهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ ^(١)

أعظم هذه الآيات : الناقة ، بل هي آية تتضمن جملة آيات في الحقيقة ، ومع هذا تمردوا على هذه الآية التي طلبوها وأمهلهم ، قال لهم : ﴿ هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الأعراف: ٧٣) ، فقام أشقاهم وعقر الناقة ، ذبحها ، انتهى الإمهال لهم : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴾ (هود: ٦٥) ، ثم جاءتهم الصيحة من السماء ، والزلزلة الشديدة من الأرض : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيْمِينَ ﴾ (الأعراف: ٧٨) . باركين على الركب ، هالكين ميتين .

﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ ^(٢)

(١) ﴿ وَءَاتَيْنَهُمْ ءَايَاتِنَا ﴾ أي : أعطيناهم وهيأنا لهم الأدلة القاطعة على صدق صالح ووجوب التوحيد ، ﴿ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ منصرفين بأنفسهم غير متبهيين ولا مكثرئين .
 (٢) ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ ﴾ يبرون ويحفرون ، ﴿ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ معدة للسكن والإقامة ، ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ مستقرين محفوظين من العدوان والشدائد ، وفي العبارة حذف من السهل إدراكه ، تقديره : (ينحتون) مساكن في (الجبال) ليسكنوها (أمينين) . ولا تزال بيوتهم قائمة حتى الآن ، وهي منحوتة في داخل الصخر ، تشهد على أنهم كانوا مطمئنين إلى الدنيا غير خائفين من نوازلها ومصائبها ، كما تدلُّ على طول آمالهم فيها ، وكثرة انهماكهم بشهواتها .

وهذه البيوت المنحوتة في الصخر لم تُغْنِ عنهم شيئاً ، حينما يجيء عذاب الله لا يحول دونه حائل ، فَتَحَصَّنَ مَا شِئْتَ أَنْ تَتَحَصَّنَ بِالصَّخْرِ ، بِالْجِبَالِ ، فابنُ نُوحٍ حينما جاء الطوفان قال لأبيه : ﴿ قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصْمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ ۗ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ (هود: ٤٣).

هؤلاء ظنوا أن بيوتهم المحصنة في الجبال تمنعهم وتحميهم إذا جاء عذاب الله ، ولن تغني عنهم بيوتهم شيئاً ، كما ظن يهود المدينة من بعد : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ حَتَّسِبُوا ۗ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۗ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ (الحشر: ٢) .

هلاك قوم صالح بالصيحة وعدم إغناء ما كانوا يكسبون من عذاب الله :

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾

﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ ، أي : نزلت بهم وأهلكتهم الصيحة الصوتية المزلزلة ، وقت الصبح ، كما أخذت الصيحة قوم لوط مشرقين ، عند شروق الشمس ، هؤلاء أخذتهم مصبحين .

﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

ما عملوا ، وما جمعوا ، وما بنوا ، وما حصنوا ، وما نحتوا في الجبال ، لم يُغْنِ عنهم حين جاء عذاب الله شيئاً ، هذا شأن الله دائماً . فما أغنى عنهم ولا كفى عنهم ما كانوا يكسبون ، وما كانوا يعملون .

هناك قوم ذكرهم القرآن : ﴿ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ﴿١٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا

كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴿٨٥﴾ (غافر: ٨٣-٨٥) ،
حينما يأتي بأس الله لا يرده رادٌ ، إنَّ قضاء الله نافذ ، وحُكْمُه جارٍ على كلِّ مَنْ
قضى الله عزَّ وجلَّ بهلاكه .

قصص سورة الحجر :

هذه هي القصص الثلاث التي تضمَّنتها هذه السُّورة بعد قوله تعالى : ﴿ نَبِيٌّ
عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١١٠﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿١١١﴾ ، فإذا ضمَّمتنا
إليها قصَّة الإنسان الأول : قصَّة آدم وإبليس تكون السورة قد تضمَّنت أربع قصص ،
وإذا فصلنا وقلنا : قصَّة إبراهيم ، وقصَّة لوط ، تكون قد تضمَّنت خمس قصص ،
وفيها عبرة للمؤمنين ، وآية للمؤمنين ، وآيات للمتوسِّمين .